

١٠ والتوحيد الذاتي



لخص المحققون الإسلاميون مراتب التوحيد في أربع مراتب: التوحيد الذاتي. بـ- التوحيد الصفاتي. جـ- التوحيد الإفيعالي. دـ- التوحيد العبادي. لكن مراتب التوحيد - في الحقيقة - لا تنحصر في هذه الأقسام الأربع، بل ثمة مراتب أخرى له قد ورد ذكرها في الكتاب العزيز. والمقصود من "التوحيد الذاتي" هو أن["] إِنْ لَا شَرِيكَ لِلّهِ لَا نَظِيرَ لِشَيْءٍ وَلَا مُمْثِلَ لِهِ. وبتعبير أوضح، إن["] "التوحيد الذاتي" هو أن["] الْذَّاَتُ الْإِلَهِيَّةُ لَا تَقْبِلُ التَّعْدِيْدَ. ولا يمكن أن يتصور["] الذهن مصداقاً وفرداً آخر["] في عالم الخارج، فالذات الإلهية تكون بحيث لا تقبل التعديـد والتكثـر. يتركز اهتمام القرآن - في الأغلب - على: مسألة "التوحيد الإفيعالي" و"التوحيد العبادي" وقلـما يهتم القرآن - في الظاهر - بالتوحيد "الذاتي" والتوحيد في "الصفات" وقلـما يتناولهما بالبحث والبيان. بيد أن["] الناطر في المفاهيم والمعارف التي يتناولها القرآن الكريم لو أجاد النظر في الآيات القرآنية لوجد أن["] القرآن تعرض للمسؤلين الأخيرتين أيضاً، ولكن في مستويات أرفع يحتاج فهمها واستيعابها واستنتاجها إلى مزيد فحص وإمعان. لقد قسـم الفلاسفة الإسلاميون الوحدة إلى أربعة أنواع: أـ- الوحدة الشخصية (العددية). بـ- الوحدة الصنفية. جـ- الوحدة النوعية. دـ- الوحدة الجنسية. وللتوضيح ذلك نقول: هناك "وحدة شخصية" و"واحد بالشخص" كما أن["] هناك "وحدة صنفية" و"واحداً بالصنف" ثم["] "وحدة نوعية" و"واحداً بالنوع" كما أن["] هناك "وحدة جنسية" و"واحداً بالجنس". وعمدة الفرق بين الصورتين أن["] الأمرين اللـذين يقعان تحت الصنف أو النوع الواحد مثلاً يسميان

"واحداً" بال النوع أو بال صنف أو بال شخص أو بال جنس". فزيد و عمرو بما أزهـما داخـلـان تحت "نـوع واحد" وهو "الإنسـانـية" فـهـما واحدـانـ بالـنـوعـ كماـ أـنـ مـفـهـومـ الإـنـسـانـيةـ لـهـ "وـحـدةـ نـوـعـيـةـ". والإـنـسـانـ والـفـرـسـ بماـ أـزـهـما داخـلـانـ تحتـ جـنـسـ وـاحـدـ فـهـماـ "واحدـانـ بالـجـنـسـ" أـعـنـيـ الـحـيـوـانـيـةـ،ـ كماـ أـنـ ذـلـكـ المـفـهـومـ "أـيـ مـفـهـومـ الـحـيـوـانـيـةـ" لـهـ وـحـدةـ جـنـسـيـةـ.ـ وـقـسـ عـلـيـهـ الـوـحـدةـ الصـنـفـيـةـ مـثـلاـ،ـ فالـطـالـبـانـ بماـ أـزـهـما داخـلـانـ تحتـ عنـوانـ طـلـبـةـ الـعـلـمـ فـهـماـ واحدـانـ بالـصـنـفـ وـيـكـونـ لـمـفـهـومـ الـطـالـبـيـةـ "وـحـدةـ صـنـفـيـةـ".ـ عـلـىـ هـذـاـ الأـسـاسـ لـاـ يـمـكـنـ وـلـاـ يـجـوزـ أـنـ نـصـفـ إـنـ تـعـالـىـ بـالـوـحـدةـ العـدـدـيـةـ بـأـنـ"ـ نـقـولـ إـنـ وـاحـدـ لـيـسـ بـاثـنـينـ.ـ إـذـ أـنـ"ـ هـذـاـ التـعـبـيرـ إـنـمـاـ يـجـوزـ اـسـتـعـمـالـهـ فـيـماـ يـمـكـنـ تـصـورـ فـرـدـ "ـثـانـ"ـ لـلـشـيـءـ الـمـوـصـوفـ بـالـوـحـدـانـيـةـ،ـ فـيـ الـخـارـجـ،ـ أـوـ فـيـ عـالـمـ الـذـهـنـ،ـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ لـمـفـهـومـ الـمـعـيـنـ سـوـيـ مـصـدـاقـ وـاحـدـ.ـ وـلـكـنـ إـذـ كـانـتـ كـيـفـيـةـ وـجـودـ الشـيـءـ بـحـيثـ لـاـ يـمـكـنـ تـصـورـ فـرـدـ آـخـرـ مـثـيلـ لـهـ أـبـداـ،ـ كـمـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ إـنـ سـبـحـانـهـ،ـ فـفـيـ هـذـهـ الصـورـةـ لـاـ تـتـحـقـقـ الـوـحـدةـ العـدـدـيـةـ مـطـلـقاـ،ـ وـلـاـ يـصـحـ إـطـلـاقـهـاـ وـاستـعـمـالـهـاـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـمـوـرـدـ بـتـاتـاـ.ـ إـنـ"ـ الدـلـائـلـ الـعـقـلـيـةـ،ـ الـتـيـ سـنـذـكـرـ طـائـفةـ مـنـهـاـ -ـ فـيـ هـذـاـ الـمـقـامـ -ـ لـتـذـكـرـنـاـ وـتـهـدـيـنـاـ إـلـىـ النـقـطـةـ الـهـامـةـ،ـ وـهـيـ:ـ أـنـ"ـ الـذـاتـ الـإـلـهـيـةـ"ـ حـقـيـقـةـ خـارـجـيـةـ"ـ لـاـ تـقـبـلـ التـعـدـدـ وـالـكـثـرـةـ بـأـيـ شـكـلـ مـنـ أـشـكـالـ وـحـتـىـ لـوـ أـمـكـنـنـاـ اـفـتـرـاضـ "ـثـانـ"ـ لـهـ إـنـمـاـ سـيـكـونـ نـفـسـهـ لـاـ غـيـرـهـ.ـ هـذـاـ مـضـافـاـ إـلـىـ أـنـ"ـ الـوـحـدةـ العـدـدـيـةـ إـنـمـاـ تـصـحـ إـذـ اـنـدـرـجـ الـفـرـدـ الـوـاحـدـ الـمـعـيـنـ تـحـتـ مـاـهـيـةـ كـلـيـةـ كـالـفـرـدـ أـوـ الـفـرـديـنـ مـنـ أـفـرـادـ الـإـنـسـانـ الـتـيـ تـنـدـرـجـ تـحـتـ عنـوانـ الـإـنـسـانـ.ـ وـهـذـاـ التـصـورـ باـطـلـ فـيـ شـأنـ "ـإـنـ"ـ،ـ إـذـ لـاـ تـنـدـرـجـ ذـاتـهـ سـبـحـانـهـ أـبـداـ تـحـتـ أـيـةـ مـاـهـيـةـ كـلـيـةـ.ـ وـبـتـعـبـيرـ فـلـسـفـيـ:ـ إـنـ"ـ إـنـ"ـ مـنـزـهـ عـنـ الـمـاـهـيـةـ وـأـنـ يـنـدـرـجـ تـحـتـ مـفـهـومـ ذـاتـيـ.ـ فـعـلـىـ هـذـاـ تـكـوـنـ الـآـيـاتـ الـتـيـ وـرـدـتـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ بـشـكـلـ "ـلـاـ إـلـهـ إـلـّاـ هـوـ"ـ وـمـاـ شـابـهـاـ نـاطـرـةـ إـلـىـ وـحـدـانـيـةـ الـذـاتـ الـإـلـهـيـةـ،ـ وـنـفـيـ الـمـثـيـلـ وـالـنـظـيرـ لـهـ تـعـالـىـ.ـ وـقـدـ أـخـطاـ مـنـ حـلـ هـذـهـ الـآـيـاتـ عـلـىـ "ـالـتـوـحـيدـ الـعـبـادـيـ"ـ وـنـفـيـ مـعـبـودـاتـ غـيـرـ إـنـ"ـ،ـ لـأـنـ"ـ إـلـهـ"ـ كـمـ قـلـنـاـ لـيـسـ بـمـعـنـىـ الـمـعـبـودـ،ـ بـلـ هـوـ وـلـفـظـةـ إـنـ"ـ سـوـاسـيـةـ فـيـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ.ـ إـنـ"ـ أـوـضـحـ آـيـةـ دـلـالـةـ عـلـىـ تـوـحـيدـ الـذـاتـ وـنـفـيـ الـشـرـيكـ وـالـنـظـيرـ إـنـ"ـ سـبـحـاهـ هـوـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ (ـشـهـدـ اللـهـ أـزـهـمـ إـلـهـ إـلـهـ إـلـهـ إـلـهـ وـالـمـلـائـكـةـ وـأـوـلـوـ الـعـلـمـ قـائـمـاـ بـالـقـسـطـ لـاـ إـلـهـ إـلـهـ إـلـهـ الـعـزـيزـ الـحـكـيمـ)ـ (ـآلـ عمرـانـ/ـ18ـ).ـ وـإـلـيـكـ آـيـةـ أـخـرىـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ:ـ (ـفـَاتـرـ السـمـمـاـ وـاتـرـ وـالـأـرـضـ جـعـلـ لـكـمـ مـنـ أـزـفـسـكـمـ أـرـ وـاجـاـ وـمـنـ الـأـرـعـامـ أـرـ وـاجـاـ يـذـرـ وـفـكـمـ فـيـهـ لـيـسـ كـمـشـدـلـهـ شـيـءـ وـهـوـ السـمـمـيـعـ الـبـصـيرـ)ـ (ـالـشـورـيـ/ـ11ـ).ـ وـهـلـ الـكـافـ فـيـ الـآـيـةـ زـائـدـةـ فـيـكـوـنـ هـدـفـ الـآـيـةـ نـفـيـ الـمـثـلـ لـهـ،ـ أـوـ غـيـرـ زـائـدـةـ فـيـكـوـنـ مـعـنـاـهـ نـفـيـ الـمـثـلـ لـهـ،ـ وـيـسـتـلـزـمـ ذـلـكـ نـفـيـ الـمـثـلـ بـالـدـلـالـةـ الـاـلـتـرـامـيـةـ إـذـ مـنـ الـطـبـيـعـيـ أـزـهـمـ إـذـاـ لـمـ يـكـنـ لـمـثـلـ الشـيـءـ مـثـلـ فـلـنـ يـكـوـنـ لـذـاتـهـ مـثـلـ أـصـلـاـ.ـ وـتـوـضـيـحـ ذـلـكـ:ـ قـالـ التـفـتـازـانـيـ:ـ إـنـ"ـ الـآـيـةـ بـصـدـدـ نـفـيـ الشـيـءـ بـنـفـيـ لـازـمـهـ،ـ لـأـنـ"ـ نـفـيـ الـلـازـمـ يـسـتـلـزـمـ نـفـيـ الـمـلـزـومـ كـمـ

يقال: ليس لأخي زيد أخ فأخو زيد ملزوم والأخ لازمه، لأنّه لابدّ لأخي زيد من أخ هو زيد، فنفيت هذا اللازم والمراد نفي ملزومه، أي ليس لزيد أخ، إذ لو كان له أخ لكن لذلك الأخ أخ هو زيد. فكذا نفيت أن يكون لمثل إثبات مثل، والمراد نفي مثله تعالى إذ لو كان له مثل لكن هو مثل مثله إذ التقدير إنّه موجود. (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (سورة الإخلاص). تذكر الآية الأولى - بخلاف تمام - شهادة الله والملائكة والعلماء على وحدانية الله، وعلينا هنا أن نعرف كيف تكون شهادة الله على هذا الموضوع. يمكن أن تحمل هذه الشهادة على الشهادة القولية كما نشهد نحن على وحدانيته بقولنا: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). وقد شهد الله على وحدانيته بالشهادة اللغطية عن طريق القرآن وهو الوحي والكلام الإلهي ضمن الآيات التي تعرضت لبيان هذه الوحدانية وإثباتها، وجملة (فَإِنَّمَا بِالْقُسْطِ) (آل عمران/18)، إشارة إلى القسط الإلهي في القول والعمل، ومن المعلوم أنّ قبول الشهادة فرع (عدالة الشاهد) وصدقه فلما كان الشاهد عادلاً كانت شهادته صادقة وصحيحة. يمكن أن تكون هذه الشهادة (المذكورة في الآية) شهادة عملية، لأنّ الله بخلقه الكون الذي يسوده نظام واحد، وتترابط أجزاؤه، وكأنها موجود واحد، وكانت فاردة أثبت عملياً وحدانية الذات المدببة لهذا الكون ووحدانية الإرادة المنظمة، الحاكمة على هذا العالم، والحق أنّ (الرأي الأول) أفضل وأقوم لإنسجام هذا الرأي مع شهادة الفريقين الآخرين، أعني: شهادة الملائكة وأولي العلم التي يناسب أن تكون شهادتها (قولية)، وحفظ سياق الآية يقتضي تفسير الشهادات الثلاث بمعنى واحد، وورد نظير ذلك في آيات أخرى أيضاً، ولا يمكن لأحد حملها على الشهادة العملية فقط. وذلك مثل: (لَكُنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعَلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) (النساء/166).

المصدر: مجلة الرباحين/ العدد 68 لسنة 1432هـ